صحف مطوية من التاريخ الاسلامي

العرب فى غاليس وسويسره

للأستاذ محمد عبد الله عنان

منذ عامين كشفت الباحث الأثرية فى وادى اللوار بفرنسا على مقربة من مدينة تور ، عن عظام بشرية ، وسيوف ودروع قيل إنها عربية ؛ ورأى فريق من الباحثين الأثريين أن هذه الآثار هى على الأرجح من مخلفات الموقعة العظيمة التى نشبت بين العرب والفرنج فى سهول نهر اللوار منذ ألف ومائتى عام (٧٣٢ م) ، وارتد فيها العرب أمام جيوش كارل مارتل زعيم الفرنج بعد أن قتل قائدهم عبد الرحمن الغافقى ، وأن اكتشافها يلقى ضياء جديداً على حقيقة المكان الذى نشبت فيه الموقعة ، والذى مازال مثار خلاف بين المؤرخين

وتلك الموقعة الشهيرة هى التى تسميها الرواية الاسلامية بموقعة بلاط الشهداء أو موقعة البلاط ، لكثرة من استشهد فيها من عظماء المسلمين وقادتهم ، وتعرف فى الرواية الفرنجية بموقعة تور أوبواتييه لأنها وقعت فى السهول التى تمتد بينهما ؛ وتضع الرواية الاسلامية تاريخها فى رمضان سنة ١١٤ من الهجرة ، متفقة بذلك مع الرواية النصرانية التى تضع تاريخها فى أكتوبر سنة ٧٣٢ م . وقد كانت هاتيك السهول التى تمتد بين تور وبواتييه وتشرف على ضفاف اللوار هى أقصى ما بلغه العرب فى فتوحاتهم فى قلب فرنسا ؛ وقد عبر العرب جبال البرنيه لأول مرة عقب افتتاحهم لاسبانيا ، وغزوا سبتمانيا (أو لانجدوك) سنة ٩٤ هـ (٧١٣ م) واستولوا على مدينة قرقشونة وثغر أربونة ؛ ثم توالى عبورهم بعد ذلك لجبال البرنيه وتوالت غزواتهم فى غالة أو غاليس (جنوب فرنسا) ، فى سبتمانيا وفى أكوتين ، ثم فى وادى الرون شمالاً حتى بورجونيه ؛ وأنشأوا من فتوحاتهم فى غاليس ولاية سميت بالثغر أو الرباط وعاصمتها أربونة ؛ ولما ارتدوا أمام الفرنج فى بلاط الشهداء ، احتفظوا مدى حين بفتوحاتهم فى غاليس ؛ واستمر لظى الحرب يضطرم بينهم وبين الفرنج فى تلك الأنحاء مدى ربع قرن ، والفرنج يستردون منهم وأراضيهم تباعاً من أيدى الغزاة ، حتى انتهوا أخيراً بالاستيلاء على أربونة آخر معقل إسلامى فى غاليس سنة ٧٥٩ م

وكان ذلك خاتمة الفتوحات الاسلامية المستقرة فى فرنسا ، ولكنه لم يكن خاتمة الغزوات الاسلامية أو خاتمة النفوذ الاسلامى فى تلك الأنحاء . ذلك أن المسلمين عادوا فنفذوا إلى جنوب فرنسا ، ثم إلى بيمون وسويسرة ، وغلبوا على كثير من المواقع والأراضى فى تلك الأنحاء أحقاباً طويلة ، ولكنهم كانوا فى تلك المرحلة جماعات مستقلة مغامرة تعمل لحساب نفسها أكثر مما تعمل لحساب الحكومات التى تنتمى إليها ، وكانوا مستعمرين أكثر منهم غزاة ؛ وتلك صفحة من تاريخ النضال بين الشرق والغرب والاسلام والنصرانية قلما تعنى بذكرها الرواية الاسلامية ، وإن كانت الرواية النصرانية تشير إلى كثير من وقائعها وتفاصيلها . وسنعنى فى هذا الفصل بسرد حوادث هذه الصفحة الغريبة المجهولة ، وبما كان للاستعمار الاسلامى فى تلك الأنحاء من الخواص والآثار

كانت أول غزوة إسلامية لفرنسا بعد قيام الدولة الأموية فى الأندلس ، فى عصر أمير الأندلس هشام بن عبد الرحمن الأموى ، ففى سنة ٧٩٣ م دعا هشام إلى الجهاد ، وأرسل إلى فرنسا جيشاً بقيادة وزيره عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث ، فعبر البرنيه ، وزحف على أربونه ، فلما لم يستطع افتتاحها ، ارتد إلى قرقشونه ؛ وكان شارلمان (أو كارل الأكبر) ملك الفرنج يشتغل يومئذ بمحاربة خصومه على ضفاف الدانوب بعيداً عن فرنسا ؛ فتأهب أمير أكوتين لرد العرب ، وأوفد لمحاربتهم جيشاً بقيادة الكونت دى تولوز ، فالتقى الفريقان فى مكان يسمى « قيل دنى » بين أربونة وقرقشونة ، ونشبت بينهما موقعة غير حاسمة ارتد على أثرها العرب إلى الجنوب مثقلين بالغنائم . وتشير الرواية العربية إلى تلك الغزوة وتقول إن المسلمين استولوا خلالها على أربونة [1] ، ولكن الروايات الفرنجية المعاصرة لا تذكر شيئاً عن هذا الفتح

(١) المقرى فى نفح الطيب ج ١ ص ١٥٨

وفى سنة ٨٠٦م هاجمت شرذمة قوية من البحارة العرب جزيرة كورسيكا ؛ فمث سين بن شارلمان ملك إيطاليا أسطولاً لقتالهم ، ولكنهم هزموه وقتلوا قائده ، وحصلوا كثيراً من الغنائم والسبي . ولم يمض عامان حتى عاد البحارة العرب إلى غزو شواطئ كورسيكا وسردانية . ثم توالت غزواتهم إليها بعد ذلك ؛ وكانت شواطئ فرنسا الجنوبية عرضة أيضاً لمثل هذه الغزوات البحرية الناهبة ، وكان توام هذه الغزوات عصابات قوية مغامرة من مسلمى الأندلس وأفريقية تجوس خلال هذه البلاد فى سفن خاصة وتتخن فى هذه الشواطئ ، وتعود مثقلة بالغنائم ؛ وكان البحارة المسلمون كالبحارة النورمانيين ، رعب هذه الشواطئ ، وكانت أخبار غزواتهم تدوى فى جنوب فرنسا ، وتعنى الروايات الفرنجية المعاصرة ، ولا سيما الروايات الكنسية بتدوين أخبار هذه الغزوات ، وتبالغ فى تصوير عصفها ووقعها ، وتقول لنا إن البحارة العرب ذهبوا فى جرأتهم إلى حد التجول فى مياه الاطلنطيق ومهاجمة شواطئ فرنسا الغربية ، وإن سفينة عربية كبيرة اجتازت فى ذلك الحين مياه الاطلنطيق حتى مصب نهر اللوار [1]

وفى سنة ٨٣٨ م خرج أسطول عربى من ثغر طرا كونه (تراجونا) ومياه البليار ، ورسا فى مياه بروفانس ، وهاجم ثغر مرسيليا وماحوله من المواقع والأراضى ، وأثخن فيها ، وحمل كثيراً من الغنائم والسبى . وكان على عرش فرنسا يومئذ لويس (لى ديبونير) بن شارلمان ، وكان ملكاً عاجزاً ضعيفاً ، فلما توفى فى سنة ٨٤٠ م ، اضطربت أحوال المملكة ، وضعفت الثغور ، فانتهز البحارة العرب تلك الفرصة ، وغزوا بروفانس عند مصب نهر الرون ، وهاجموا مدينة آرل ، وخربوا معاهدها . ثم توالت غزواتهم بعد ذلك فى تلك المياه ، وهاجموا مراراً مرسيليا وآرل . وفى سنة ٨٥٠ ، فى عهد عبد الرحمن بن الحكم أمير الأندلس ، عبر المسلمون جبال البرنيه مرة أخرى بقيادة موسى حاكم سرقسطة وغزوا سبتمانيا ، وأثخنوا فى نواحيها ،

(١) جمعت أقوال الروايات الفرنجية والكنسية المعاصرة فى موسوعة « Bouquet » بنصوصها اللاتينية أو الفرنسية القديمة ، وعليها جل اعتمادنا فى استخراج حوادث هذا الفصل

واضطر شارل « الأصلع » ملك فرنسا أن يعقد الصلح معهم ؛ ومن الرجح أن هذه الغزوة كانت ذات صفة رسمية ، وأن حكومة قرطبة هى التى نظمتها أو أوحت بتنظيمها . وفى سنة ٨٦٩ ، هاجمت شراذم من البحارة العرب بروفانس مرة أخرى ، واستولت على جزيرة كمارج الواقعة فى مصب الرون ، وأسرت أسقف آرل الذى كان يقيم فيها ، وعادت مثقلة بالغنائم والأسرى

— ٢ —

ولقد أذكى نجاح هذه الغزوات التوالية فى نفوس المغامرين والمجاهدين من مسلمى الأندلس وأفريقية حب التوغل فى هاتيك الأنحاء ورغبة استعمارها والاستقرار فيها . وكانت أحوال غاليس (جنوب فرنسا) قد اضطربت يومئذ ، وغلب سيد من سادة تلك الأنحاء يدعى بوسون على ولايتى دوفينه وبروفانس وتلقب بملك آرل ، وقام يناوئه بعض منافسيه ، ونشبت بينه وبينهم حروب أهلية (نحو سنة ٨٩٠) . فى تلك الآونة رست سفينة عربية صغيرة يحملها عشرون بحاراً من المسلمين فى خليج جرجو أو خليج سان ترويبه ، ونزلوا الى الشاطئ ، ولجأوا الى غابة كثيفة تظللها الجبال ، ثم هاجموا بعض الضياع القريبة وفتكوا بسكانها . ولما رأوا منعة معقلهم سواء من جهة البر أم البحر ، عولوا على الاستقرار فيه ، ودعوا إخوانهم من الثغور الاسلامية القريبة الى القدوم ؛ وأرسلوا فى طلب العون والتأييد من حكومتى الأندلس وافريقية ؛ فوفد عليهم كثير من المغامرين البواسل ، ولم تمض أعوام قلائل حتى استقروا فى ذلك المكان وأنشأوا لهم سلسلة من المعاقل والحصون أمنعها وأشهرها حصن تطلق عليه الرواية الفرنجية المعاصرة اسم (فراكسنتم) Fraxintem والمظنون أنه هو المكان الذى تقوم عليه اليوم قرية « جارد فرينيه » Garde-Frinet [1] الواقعة فى سفح جبال الألب ، ومازالت ثمة آثار تدل على قيام معاقل قديمة فى ذلك المكان . ولما كثر جمعهم واشتد ساعدهم ، أخذوا فى الاغارة على الأنحاء المجاورة ، وأصبحوا قوة يخشى بأسها ؛ وسعى اليهم بعض الأمراء والسادة المتنافسين يستظهرون بهم بعضهم على بعض ، فلبوا الدعوة ،

(١) Reinaud; Invasins des Sarrazins en France (P. 160)

وانتزعوا من بعض السادة أراضيهم ، وأعلنوا أنفسهم سادة فى الأنحاء المعلوبة ؛ وبثوا الذعر والروع فى جنوب بروفانس حتى وصفهم كاتب معاصر « بأن واحداً منهم يهزم ألفاً واثنين يهزمان ألفين »(١)

وكانت هذه أول خطوة فى استعمار العرب لجنوب فرنسا . وفى خاتمة القرن التاسع اتخذ المستعمرون خطوة أخرى . فتقدموا نحو جبال الألب غرباً وشمالاً . وكانت مملكة آرل قد ضعفت واضمحلت ، وخلف بوسون ولده لويس ، ولكنه ذهب الى إيطاليا ليحارب الى جانب حلفائه ، فهزم هنالك وأسر ، وتركت مملكته بلا دفاع ؛ وساد الاضطراب والفوضى فى غاليس كلها . فانتهز المسلمون تلك الفرصة ، واخترقوا مفاوز دوفينه ، وعبروا « مون سنى » أهم ممرات الألب الفرنسية ، واستولوا على دير نوفاليس الشهير الواقع فى وادى « سيس » على حدود پيمون ، وفر الأحبار فى مختلف الأنحاء (سنة ٩٠٦ م) وأغار المسلمون على القرى والضياع المجاورة ونهبوها وفتكوا بأهلها ، وأسر بعضهم وأخذوا الى « تورينو » (بايطاليا) وسجنوا فى ديرها ، ولكنهم استطاعوا أن يحطموا أغلالهم ، وأضرموا النار فى الدير وفى المدينة ، وفروا عائدين الى زملائهم ؛ واشتد بأس العرب فى تلك الأنحاء ، واحتلوا معظم ممرات الألب ، فسيطروا بذلك على طرق المواصلة بين فرنسا وإيطاليا ؛ ثم انحدروا من آكام الألب الى سهول پيمون ، وأغاروا على بعض مناطقها

وفى سنة ٩٠٨ نزلت سرية قوية من البحارة العرب فى شاطىء بروفانس على مقربة من « ايج مورت » ونهبت دير بسالودى . وكانت الأديار والكنائس يومئذ مطمح أنظار الغزاة لما كانت تغص به من الذخائر والأموال . وانتشر العرب بعد ذلك فى جميع الأنحاء المجاورة ، واجتاحوا كل ما فى طريقهم من البسائط ؛ وهاجموا مرسيليا وهدموا كنيستها ، وغزوا ايكس ، وسبوا النساء وتزوجوا بهن ليكثر نسلهم ويقووا به ، وانضم اليهم كثير من النصارى المغامرين من أهل هذه الأنحاء ؛ وهجر السادة والأغنياء حصونهم وقصورهم والتجأوا الى الداخل خشية القتل أو الأسر ، وأغلق العرب طريق الألب الى إيطاليا . وكان يمر بها كل عام ألوف من الحاج الذين يقصدون الى رومة ، واقتضوا منهم الضرائب الفادحة ليسمحوا لهم بالمرور

(١) Reinaud; ibid; P. 161

— ٣ —

ثم اتخذ العرب خطوة جديدة فى سبيل التقدم الى أواسط أوربا ، فدفعوا غزواتهم الى پيمون ومونفراتو . وتقول لنا الرواية الكنسية المعاصرة إنهم وصلوا فى أوائل القرن العاشر الى حدود ليجوريا على شاطىء خليج جنوه ؛ ويروى ليوتبراند وهو كاتب معاصر أن العرب غزوا سنة ٩٠٦ مدينة « آكى » من أعمال مونفراتو الشهيرة بحماماتها (وهى على مقربة من تورينو) ، ثم غزوها ثانية سنة ٩٣٥ بقيادة زعيم يدعى « ساجيتوس » ولكنهم هزموا ومزقوا ؛ وفى هذا الوقت أيضاً ، نزلت شرذمة قوية من البحارة الأفريقيين بساحل جنوه ، وقتلت عدداً كبيراً من أهلها ، وأسرت جموعاً كثيرة من النساء والأطفال

وفى سنة ٩٣٩ غزا العرب منطقة « ڤاليه » فى جنوب سويسرا ، ونهبوا دير « أجون » الشهير ، وغزوا فى الوقت نفسه منطقة « تارانتيز » من أعمال ساڤوا الوسطى ، ثم اتخذوا منطقة « ڤاليه » قاعدة للأغارة على الأراضى المجاورة فى سويسرا وإيطاليا ونفذوا منها الى أواسط سويسرا ثم الى « جريزون » فى شرق سويسرا ، ونهبوا دير ديزنتى أشهر وأغنى الأديار السويسرية ، ونهبوا طائفة أخرى من الأديار والكنائس الغنية . وفى بعض الروايات أيضاً أن العرب وصلوا فى غزواتهم الى بحيرة جنيف ، وجازوا إلى مفاوز چورا الواقعة فى شمالها . وكانت سويسرا يومئذ من أقاليم مملكة بورجونيه ، وملكتها يومئذ « الملكة برت » الوصية على ولدها الطفل كونراد ، فارتدت حين اقتراب العرب الى حصن ناء فى جهة نيوشاتل

وفى سنة ٩٤٠ غزا العرب فريجوس ، وكانت يومئذ من أكبر وأمنع ثغور فرنسا الجنوبية ؛ وغزوا أيضاً ثغر طولون ، ففر السكان الى الجبال ، وعاث العرب فى تلك الأنحاء ، وخربوا المدن والحصون ، وأحرقوا الأديار والكنائس

ولما اشتدت وطأة العرب فى جنوب فرنسا وبلغ السخط من غزواتهم وعيثهم ذروته ، اعتزم سادة الجنوب وعلى رأسهم هوج ملك بروفانس أن يبذلوا كل ما فى وسعهم لسحق ذلك

العدو المزعج ؛ ورأى هوج أن يبدأ بافتتاح حصن فراكسنيه (فراكسنم) الذى يمتنع به العرب ويتخذونه قاعدة لتأمين مواصلاتهم مع اسبانيا وأفريقية ، وقاعدة للأغارة على الداخل ، وكتب الى صهره امبراطور قسطنطينية يطلب منه أسطولاً من قاذفات النار اليونانية حتى يستطيع مهاجمة العرب من البر والبحر معاً . فلبى نداءه ، وفى سنة ٩٤٣ رسا اسطول بزنطى فى مياه تروبيه ، وزحف هوج فى نفس الوقت بجيشه على فراكسنيه ؛ وهوجم العرب من البر والبحر بمنتهى الشدة وأحرقت سفنهم ؛ ونفذ هوج الى الحصن بعد قتال رائع ، وفر العرب الى الآكام والربى ، وكاد يسحق سلطانهم فى تلك الأنحاء . ولكن حدث عندئذ أن علم هوج أن خصمه ومنافسه بيرانجيه قد عاد الى إيطاليا لينازعه فى انتزاع عرشها ، فصرف هوج الأسطول ، واضطر أن يعقد الصلح مع العرب بشرط أن يبقوا فى رؤوس الألب وممراته وأن يغلقوا الطريق الى إيطاليا فى وجه خصمه ؛ وبذلك استعاد العرب قلاعهم وسيادتهم فى جنوب بروفانس

واحتل العرب آكام الألب وممراتها ، وفرضوا الضرائب الفادحة على المسافرين ، واستطاعوا بسيطرتهم على ممر سان برنار الكبير الموصل بين سويسرا وإيطاليا وغيره من الممرات والمعاقل الجبلية ، أن يجتاحوا الأنحاء المجاورة ، وأن يبثوا فيها الذعر والروع واستقرت منهم جموع كبيرة فى السهول والضياع القريبة من معاقلهم ، وتزوجوا بالنساء الأسيرات ، وزرعوا الأرض ، واكتفى أمراء هذه النواحى بأن يحصلوا منهم بعض الضرائب

ونفذ العرب أيضاً الى منطقة نيس إحدى ولايات مملكة آرل الجنوبية ، واجتاحوا شاطىء ليجوريا كله (جنوه) ؛ بل يظهر أن سرية منهم استقرت فى نيس ذاتها ، وما زال فى نيس الى اليوم حى يعرف بحى العرب Canton des Sarrazins

وأخيراً نفذ العرب الى قلب ولاية دوفينه وغزوا مدينة جرينوبل واحتلوها مدى حين ، واحتلوا واديها الخصيب ، « جريزيفودان » الذى يجرى فيه نهر الازير فرع الرون ، وقر أسقف جرينوبل وزملاؤه الى الشمال حاملين لرفات قديسهم[1]

للبحث بقية

محمد عبد الله عنان
المحامى

(١) Reinaud: ibrid: P. 180 & 181

٨ ـ الشخصية

للأستاذ محمد عطية الابراشى

المفتش بوزارة المعارف

(٣) الشعور بالواجب :

من الوسائل التى تساعد على التنفيذ ، وعلى تقوية الشخصية العملية ، تلك الصفة الحية وهى الشعور بالواجب ، وإجابة نداء الضمير ؛ فالانسان حينما يشعر بوازع نفسى بأنه يجب عليه أن يفعل كذا ، أو بأنه يجب عليه ألا يفعل كذا ، فان هذا الشعور وحده يرمى إلى مغزى خلقى ، ويستدعى نشاطاً عقلياً لفعل الشىء أو محاربته ، فهو بمثابة مؤثر داخلى يؤثر فيه تأثيراً قوياً . وإن إجابة هذا المؤثر أو الباعث النفسى خير كفيل لاستنهاض الهمة ، ومضاعفة العزيمة . قال « إمرسون » إن الانسان إذا استحثه الواجب لأن يقوم بعمل ما ، قام به » وليس الشعور بالواجب أو تلبية نداء الضمير ، أو الصوت الداخلى ، مقصوراً على طبقة دون أخرى ، ولا على جيل من الأجيال ، ولا سن من الاسنان

وإذا تذكرنا أن الشعور بالواجب يتضمن حكم النفس وضبطها ، أمكننا أن ندرك العلاقة بين الشخصية وبين الشعور بالواجب وإجابة الداعى النفسى ؛ ففى كل أمر من أمور الحياة نجد أن هدوء البال ، وراحة الضمير ، والاطمئنان ، والجمال ـ ثمرة من ثمرات الطاعة ، ومراعاة القوانين العلمية والفنية

وإننا إذا بحثنا فى تاريخ العظماء والأدباء والفنانين ، وجدنا أن ذوى الشخصيات الخالدة (فى التاريخ) كانوا من ذوى الضمائر الحية الحساسة ، الذين يجيبون نداء الضمير ، ويصغون إلى صوت الله فيهتدون بهديه ، وكانوا يحسون بالواجب فيقومون به ، ويعملون على تنفيذه . وكثيراً ما يكون الضمير الحى والشعور بالواجب سبباً فى إنقاذ الانسان من صروف الحياة ، ومن السقوط إلى الهاوية فلا يكون فريسة للنفس الشريرة . فكل إنسان تفتح